مصيدة الرجال

بقلم: ماندي

كان هناك مقعدان خاليان في المنتدى الإيراني.. المنتدى الذي يلتقي فيه عند الأصيل كبار الرجال من ذوي الشهرة والجاه العريض.. وقد دلف مستر «دوسو جيجي بوي» إلى المكان متجهاً إلى أدنى المقعدين إليه.. وكانت حركاته تشبه حركات سلحفاة بشمت يأكلها فتثاقلت خطواتها وأن جهدت أن تلحق بزاد جديد! وتنفس بارتياح إذ قدر له أن يصل إلى هذا المقعد قبل غريمه اللدود، مستر «فيروزي بتليفالا».

وأخرج من جيبه منديلاً فاخراً ملوناً وعصر به أنفه، وألقت الشمس على صفحة وجهه بعض شعاعها الهاديء الذاهب فبدا شحوبهما قريباً من قريب!.. وهبت نسمات رقيقات يصافحنه من كل جانب، وهن آتيات من طرف الخليج.

واستكمل مستر جيجي بوي أسباب راحته.. فك أزرار معطفه بطول الجزء الذي يغطي كرشه، وأرخى حزامه المشدود حول وسطه، ومد ساقيه وأسلم نفسه للإغفاء والاسترخاء.

كان من عادته أن يتابع بنظراته الحالمة أفواج المارة في عرض الطريق وهم يهرولون إلى أماكن الركوب بعد انقضاء سحابة نهارهم في العمل المتصل الشاق.. إن إحساسه بأنه يملك مثل هذه الجلسة المريحة، ويملك مع ذلك البيضة التي تدر عليه رزقاً ثابتاً، بينما يضطر كل هؤلاء الكادحين أن يصلوا ليلهم بنهارهم في جهاد لا ينتهي.

– هذا الإحساس كان يملأ نفسه رضاً وارتياحاً.. ولم تكن نظراته تحرم أحيانًا من أن تصادف «سارياً» زاهياً ينعشه ويثير فضوله، وأحياناً كان يزعجه ويبدد أحلامه نباح جرو أو خصام كلبين، أو صرير فرملة عندما تقف سيارة فارهة فجأة في جانب من الطريق، كأنما تنبه الناس إلى قدوم صاحبها.. في هذه الحالة كان يستعيض من واقعه المزعج بالهروب إلى الماضي المشرق.. الماضي الذي خلف فيه الشباب.. والربيع.. والحب!.. كان يستعيد ذكريات الماضي أمام مخيلته كبقرة طاعمة تجتر في وحدتها وليلتها ما طعمته.

ذكر السنين العديدة التي قضاها في متجره بالقرب من ترسانة السفن، والسنين التي أخذ فيها يرتقي السلم شيئاً فشيئاً إلى الإثراء والرخاء، والمتجر المجاور لترسانة السفن الذي أنفق على صنعه مما حصله بذكائه واجتهاده.. وذكر ابنته البدينة «فرين»، ذات العينين الضيقتين واللسان الحاد، وشغفها بالتمثيل وبأفلام آفا جاردنر، وذكر ابنه المتحذلق المتأنق «مينو».. مينو المبذر المتلاف العاطل الذي يحتال دائماً على أن يصنع كل ما يشتهيه.. وذكر زوجته المتوفاة وحماته العجوز الشمطاء السليطة اللسان، والببغاء الذي يقتنيه، ومسكنه المريح في «كولابا».

وعندما تأهبت الخيوط المتلكئة من شمس الأصيل لكي تنفلت ذاهبة وراء الأفق، وآبت أسراب الطير إلى أماكنها في أعالي الأغصان لتعقد برلمانها المغرد الصداح، تلاشت تلك الأخيلة وانفرط عقد

الذكريات فضاعت في عتمة المساء، واتجهت أفكاره إلى الأكلة الشهية الدسمة التي لا شك أن «فرين» قد أعدتها لتستقبله بها عند عودته إلى البيت.. وبحركة غير إرادية أخرج ساعته.. ساعة الجيب العتيقة المثبتة في سلسلة ذهبية، ونظر فيها، ورأى بعد هذه النظرة أن يكتفي بما أمضاه من وقت، وأن يأخذ طريقه إلى البيت.

وبينما كان يهم بالوقوف ويستدير بوجهه، لمح خلف المقعد مظلة صغيرة رشيقة، ومال وتناولها بيده.. وتأملها فرأى بطاقة ملصقة بها عند طرفها، ودفعه الفضول إلى أن يفحص هذه البطاقة فمسح زجاج نظارته وقرب طرف المظلة إليه، فإذا هي تحمل بضع كلمات مكتوبة باليد:

«إذا فقدت – هذه المظلة – فإني أرجو إعادتها إلى مس ليلا – كي، منزل هيرالال، ولكشوار رود، بومباي»

وما لبث أن تمتم قائلاً:

– عال، عال!.. أية امرأة هذه التي تترك أشيائها عند مقعد في مكان عام؟

وبدافع مما أوحى به خياله، أسرع فوضع المظلة تحت إبطه، واستقل مركبة توصله إلى البيت.

***

في الليلة التالية تغيب مستر جيجي بوي عن مقعده المختار في المنتدى، فقد كان في ذاك الوقت ذاته تائهاً في مسالك «لكشوار» في بومباي يتلمس الطريق إلى منزل هيرالال، ويتلمس الأسباب للقاء مس ليلا – كي. لقد وجد نفسه تضطرب شيئاً ما وهو يمسك المظلة المفقودة بأصابعه كلها.. ووجد قلبه يخفق خفقاناً تكاد دقاته تصل إلى أذنيه، وأحس بتأثير ذلك في ارتجاف أطرافه وجفاف حلقه وتتابع أنفاسه!

إن الأربع والعشرين ساعة الأخيرة منذ عثر على المظلة حتى انتهى إلى منزل صاحبتها، كانت بالنسبة له من أعجب فترات حياته!.. فقد ظل يحلم بمس «كي» طوال هذه الساعات.. عندما تناول طعام الإفطار لم يستطع أن يركز انتباهه في صحيفة الصباح، وتنبهت ابنته «فرين» إلى حالته فسألته بقلق عما إذا كان يشكو من وعكة أو انحراف في المزاج. وذهبت شهيته فلم يتم وجبته، ولما جعل يحلق ذقنه جرح وجهه مرتين! وفي الأوتوبيس الذاهب إلى ولكشوار رود لم يستطع أن يخفي انفعالاته، حتى أن جاره، وهو من كبار طائفة البارسيين التي ينتمي إليها، ظنه مخمورًا.. وعلى طول الرحلة كان تقلص وجهه وتجهمه يبددان الأحلام السعيدة التي كانت تراود خياله!

وبعد جهد كبير وصل إلى ما كان يبحث عنه.. وقرأ في لوحة الأسماء المثبتة عند مدخل البيت أن شقة مس ليلا – كي تقع في الطابق الثالث.. ولم يكن هناك مصعد كهربائي، وكانت درجات السلم وعرة أمام المرتقى الذي يكون في مثل سنه.. وفي أثناء الصعود نجا مستر جيجي

بوي بأعجوبة من حادث جلل؛ فقد وطئت قدمه قشرة موز وانزلقت دون أن تقع الكارثة، ولم يسلم بعدها من قطة مصعرة الخد جعلت تحاوره وتنفلت ذهاباً وجيئة بين قدميه متمسحة فيهما، حتى الطابق الثالث!..

والتقط أنفاسه وتلكأ في خطاه قبل أن يستأنف الصعود.. وبرزت لخياله من بين هذه المتاعب صورة جذابة فاتنة.. عادت إليه أحلام الليلة السابقة تزف إليه مس ليلا – كي في صورة حورية من السماء جاءت لتنتشله من صحرائه ووحدته وخريف حياته.. كان من قبل اكتحال عينه بهذا الطيف بلا أنيس ولا معين، ولكنه الآن يلمح من خلال الضباب الذي يكتنفه، طيفها الساحر كما يتخيله.. إنه يتصورها حسناء شابة ذات شعر ذهبي وعينين رزقاوين واسعتين، وشكل جذات كالرسم الذي يضعه الحلاق في صالونه لحسناء يابانية، تتوثب له مشاعره كلما ذهب إلى هناك ليقص شعره!

من تكون مس ليلا – كي؟.. هل تكون ابنة مليونير؟ ولو أن السلالم التي يرتقيها يكفي مظهرها لاستبعاد هذا الفرض – هل تكون إحدى كواكب السينما؟ هل تكون أميرة من أميرات التاريخ، أو أميرات الأحلام والأساطير؟ هل....

وأخيراًوجد نفسه أمام باب الشقة مستحيياً مضطرباً.. ومسح أنفه ونظف نظارته بعناية، ثم استجمع شجاعته، و.. وضغط الزر.

وفتح الباب في أقل من دقيقة، وظهرت أمامه امرأة يبدو في عينيها معنى التساؤل.. كانت ترتدي جونلة حمراء فضفاضة حول الذراعين بارزة عند الصدر، وكانت عيناها تشبه زهرة متفتحة يلتمع فيها الندى، ولم تكن بيضاء تماماً مع أن شعرها كان هو الشعر اللامع الذي تخيله.. كانت على كل حال تشبه الصورة التي صورها خياله ومثلتها أحلامه وزادت عليها حلاوة وخفة ورشاقة وجاذبية! ولم يستطع أن يحكم من مظهرها أهي نصف أوروبية، أم هي مثله باريسية، أم أجنبية قصرت شعرها على طريقة بني جنسها.. ولكن شيئاً واحداً قد استطاع أن يتحقق منه؛ لقد تحقق أنه قد أخذ بجمالها ووقف مشدوهاً أمام فتنتها وسحرها!

وحاول جاهداً أن يخفي اضطرابه وهو ينطق باسمها ويحدثها قائلاً: «هل أنت.. أعني هل أخاطب مس ليلا –كي؟».

قالت: أجل..

– لقد سمحت لنفسي بأن أحضر إليك مظلتك هذه.. وجدتها على مقعدي في الليلة الماضية، ودلتني البطاقة الملصقة بها على عنوانك..

وأجابته بصوت عذب رقيق، فيه حلاوة وإغراء:

– ما أجمل كرمك! هل لك في الدخول لتجلس عندي قليلاً، فأكافئك بفنجان من الشاي.. أو ربما تفضل الـ«شيري»؟.. إن لدي نوعاً جيداً حلو المذاق ولكنه ممتع.. أؤكد لك..

ولم تمض دقيقة واحدة حتى كان صاحبنا ينبعج فوق مقعد كبير مريح، وحملت مس ليلا عنه المظلة وغطاء الرأس.. وعاد إليه هدوءه وثقته بنفسه وهو يخاطبها قائلاً:

– اسمي دوسو جيجي بوي..

وقالت على الفور:

– دوسو؟.. إنه أحب الأسماء إلي!..

وناولته كأس الخمر.

ودار بعينيه في أنحاء الحجرة.. لقد رآها أحسن ما تكون الحجرات وأعجبه الأثاث الأنيق والسجادة الكشميرية والستار الملون الذي يغطي النافذة، والببغاء اللطيف المطل على سيدته من قفصه الصغير..

ورفعت المضيفة كأسها إلى شفتيها ورشفت رشفة، وقالت تحييه:

– كيف وجدت هذا الصنف؟

– لطيف جداً يا مس..

– بل ادعني ليلا – كل أصدقائي يرفعون معي التكلف..

وقال وفي نبرته بقية من حياء:

– يبدو أن لك أصدقاء عديدين يا ليلا..

– أنت تعلم يا دوسون أن «بومباي» تفتح صدرها للجميع.

قال يجاريها:

– لقد أمضيت في هذه المدينة كل حياتي، وحب بومباي يجري في دمي ويحيا في عظامي..

أطلق الشراب له العنان، فلم يكد يمضي بعض الوقت حتى كان قد روي لها قصة حياته منذ بدايتها.. قص عليها كيف كان حال متجره بالقرب من ترسانة السفن، يحصل على رزقه من هذا الطريق، وتحدث عن زوجته المتوفاة، ومتاعبه وشئونه، ومحاصيله الزراعية والروماتيزم الذي يثقل على مفاصله أحياناً.. قص عليها كل هذا بطلاقة ولباقة حتى بدا له أنها قد سرت من جلسته.. واطمأن كل منهما إلى صاحبه وراح يحدثه بغير تكلف، وعندما وصل صاحبنا إلى الكأس الثالثة أوحى إليهما الشيطان بأن يتحدثا عن «مقالب» الببغاوات، ونوادرها!

وأدرك جيجي بوي أن مضيفته تتمتع بأوفر قسط من الذكاء والألمعية وسرعة الخاطر كما تتمتع بالجمال والفتنة، وشعر بارتياح كبير وهو يجلس في حضرتها، وجعل يتنظر بتمعن إلى عينيها العميقتين، وهاتين الزهرتين المتفتحتين، اللتين يلمع فيهما الندى!

وأحس أن الصهباء قد لعبت برأسه وفعلت مفعولها.. وخشى أن يفقد السيطرة على نفسه، ففكر في أن يغادر المكان قبل أن يرتكب حماقة من حماقات الناس.. وأخرج من جيبه ساعته.. ولاحظت هي أنه يتأهب للانصراف، فقالت:

– أحقاً يا دوسو تنوي أن تذهب بمثل هذه السرعة؟

– إننا الآن في منتصف الساعة الثامنة يا ليلا.. ينبغي ألا أتأخر عن موعد طعامي.. إن «فرين» ستكون قلقة وغاضبة.. إنها في مثل هذه الحالات لا تهادن ولا تتروى.. بل تبدو كالنمرة التي ترينها في حديقة «بيكولا» للحيوان!

وقف، وهو يضحك سروراً بهذا الحديث، وهذه الفكاهة.. وخاطبته بكل رقتها وعذوبة صوتها:

– عزيزي دوسو.. هل ستعود قريباً مرة أخرى؟

– سأجتهد يا ليلا.. إنني أشكرك بكل جوارحي على هذا الوقت الممتع وهذه الفرصة الجميلة..

وقالت ترد تحيته:

– كأنما هو مغناطيس قد جذبنا أحدنا نحو الآخر.. أو قل.. مظلة..

وقادته إلى السلم، وتصافحا بالأيدي مصافحة حارة.. وكان هو يشعر كأنما يسير على الهواء.. إنه منذ زمن طويل لم يشعر بمثل هذه السعادة.

وبعد ثلاثة أيام، خلا مقعده في المنتدى مرة أخرى.. لقد كان في ذلك الوقت يرقى درجات السلم للمرة الثانية.. السلم الذي يقود إلى مسكن مس ليلا – كي!

كان يحمل في إحدى يديه باقة من الورد الجميل، وفي يده الأخرى علبة فاخرة مليئة بالشيكولاتة.

ولم يكن في ذاك اليوم قد أمضى نهاره في سلام.. فقد كانت ابنته فرين مهتاجة غاضبة، وكان ابنه مينو قد أصر على أنه يكلفه دفع ثمن هدية بمائة روبية.. إن هذه المضايقات قد حببت إليه أن يكون في هذا المهرب.. اللذيذ!

لقد ارتدى المعطف الذي كان عند الكواء وعاد لتوه.. وحرص على أن يقص شعره، ويسوي شاربه، وينظف أظافره!

***

ومرة أخرى مسح أنفه، ونظف نظارته، وضغط الزر.. وفتح الباب، وظهرت مس ليلا ورحبت به ترحيباً حاراً، وهي تتشح بثوبها الجميل..

– دوسو؟.. إني سعيدة بأن أراك ثانية..

وفي استحياء قدم لها باقة الورد، وصندوق الشيكولاتة.

ونظرت إلى الورود وقالت:

– ما أجملها!.. إنك ملاك يا دوسو.

والتفتت إلى الببغاء وقالت:

– أليس كذلك يا بولي؟

وصاحت «بولي» بالجملة التي تحفظها:

– العفو.. العفو..

وعلقت السيدة قائلة:

– أيتها الغبية.. أليس عندك إلا ترديد الصدى!.. والآن استرح يا دوسو وخذ حريتك.. إنني سآتيك ببعض الشراب.. إنه «الفودكا» في هذه المرة، لقد قدمها إلى زائر روسي كهدية عزيزة عليه يؤثرني بها.

وقال جيجي بوي:

– أنا لم أذق الفودكا قط.

وفكر قليلاً.. أتراها تكون في تأثيرها كشراب الـ«شيري»؟

وعادت هي تقول:

– إنه مشروب عظيم يا دوسو.. أحسن من الشمبانيا؛ إنها تجعلك تفكر في ضوء القمر.. وفي مجالي الصيف، وفي القبلات الحالمة تحت لألاء النجوم!

وتأمل الزجاجة ثم قال:

– يبدو أنها كذلك..

وقدمت له الكأس.. وتلاقت كأسه مع كأسها وشرب بشغف وتلذذ... وجلست بجانبه فوق مسند المقعد الوثير، وأمسكت بيده وضمت عليها يدها الدافئة...

ولكنها ما لبثت أن صاحب به:

– دوسو.. إن يدك باردة.. باردة جداً!

– إنني رجل كبير السن يا ليلا!

ولم يدر لماذا نطق بهذا الكلام.. لقد بدأت عبارته مستهجنة قذف بها في غير موضعها.. وفي اضطرابه مد يده وتناول كأساً آخر.. وقالت هي:

– ولكن هذا غير صحيح يا عزيزي دوسو.. إن لي أصدقاء عديدين أكبر منك سناً، وهم لا يعتقدون على الإطلاق أنهم كبار السن.

– إن الإنسان يكون كبره بمقدار ما يشعر به..

لقد وجد الفودكا مرة المذاق قاسية لا تحتمل، وقد أثرت فيه تأثيراً سيئاً جعلته كمن أصيب بداء السوداء!

وعادت تقول:

– وهل أنت تحس بالكبر؟!

– أحياناً، يا ليلا..

– إنه بسبب بنتك فرين والجو المقبض الذي تعيش فيه.. إنك في حاجة إلى أن تنسى نفسك أحياناً.. إنك تحتاج إلى قبلة لذيذة..

وقبلت جبهته برفق.. كأنها فراشة تهوم بجناحيها فوق ورقة شجر.

وابتسم مغتبطاً..

– تصور يا دوسو إنك تبدو في عيني الليلة أصغر بسنين كثيرة منك عندما جئت في الليلة السابقة ومعك مظلتي!!

ولم يفق هو من تأثير الفودكا السيئ، فلم يستطع إلا أن يقول باقتضاب:

– لقد قصصت شعري لا ليلا..

كان من تأثير الشراب يفكر في كل شيء إلا التفكير في «ضوء القمر.. وفي مجالي الصيف.. وفي القبلات الحالمة تحت لألاء النجوم!».

وسحب يده من يدها، وقال:

– هل أستطيع أن أذهب إلى غرفة الحمام؟

– طبعاً، إنها هناك، سر إليها عن طريق غرفة النوم.

واتجه إليها، ولما عاد بعد خمس دقائق، أحس بأنه أحسن قليلاً من ذي قبل، ورأى مرأة صغيرة على مقربة منه فنظر فيها، هاله أن يرى وجهه قد شحب، وأن السنين كلها قد جاءت بكلكلها وحطت عليه..

وأخرج منديله ومسح العرق عن جبينه.. لقد اهتز وهو يرى وجهه في المرآة.. وتمتم لنفسه: «إنني مسن.. إنني كبير.. إنني كهل..».

ورفع حاجبه ونظر إلى مرآة التواليت التي انعكست عليها صورة ليلا وهي جالسة في ثوبها الرشيق وشبابها المزدهر.. ولمح إطاراً مستنداً إلى المرآة، يحمل صورة خيل إليه أنها ليست غريبة عليه، وحملق فيها، فإذا هو يقرأ في طرفها:

«إلى حبيبتي ليلا.. مع عواطفي وحبي».

– مينو دوسو –

مينو!.. إن سحابة ثقيلة من الحزن أخذت تحط فوق قلبه.. إنه ليس حاقداً على مينو ولا غاضباً من نفسه لأنه «عجوز» واهن القوى!

وعاد أدراجه في شجاعة إلى الغرفة المجاورة.. حيث كانت ليلا تجلس.

– هل أنت بخير يا دوسو؟

– لا أخفي عليك إنني لم أعتد الفودكا.

قالها بنفس محطمة، وقلب حزين.

وقالت ليلا معقبة:

– مسكين دوسو!

– أجل.. يا ليلا.. مسكين دوسو.

وفي هذه اللحظة رن الجرس.. وهرولت ليلا لتفتح الباب، وسمع جيجي بوي من خلال الحوار صوتاً لا يبدو غريباً عليه.

وأغمض عينيه، ولكن الصوت ظل يتسرب إلى أذنه:

– هل سيدتي: مس ليلا –كي؟

– أجل..

– لقد سمحت لنفسي بأن أحضر إليك مظلتك هذه.. وجدتها على مقعدي في الليلة الماضية.. إن اسمي بتليفالا – فيروزي بتليفالا... لقد دلتني البطاقة الملصقة على عنوانك فجئت.....!!!..

إن الخير قد يحني رأسه للعاصفة، ولكنه يخرج من صراعه ع الشر منتصراً في النهاية، ما في ذلك شك!..